دعوة الرسول ﷺ إلى الله بالمكاتبة

رسائله إلى الملوك والأمراء

لَيْسَتِ الدَّعْوَةُ إلى الله قاصرةً على الخطب والدروس أو الأسوة الحسنة فان ذلك ينفع الأدْنَيْنَ منك الذين يَرَوْنَكَ أو يسمعون كلِمَكَ أما من نأتْ بهم الديار فطريق وعظهم أن تراسلهم وتكاتبهم ، ولقد سنّ لنا رسول الله ﷺ سنةً حسنةً فانه كاتب الملوك وأمرهم أن يُبَلِّغُوا رَعِيَّتَهُمْ وأنهم مسئولون عنهم فعلينا أن نكاتب الملوك والأمراء إن كانَتْ لَهُمْ فى ديارهم الكلمة ندعوهم إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم ونطلبُ اليهم أن يبلغوا من دُونهم فان كانت الكلمةُ فى عمالهم للنوّاب كاتبنا هؤلاء وَرَغِبْنَا إليهم أن يُبَلِّغوا من أنابوهم ، كل ذلك نعمل قياما بواجب الارشاد واجب الدعوة إلى الله ، واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واجب البلاغ الذى وضعه الله فى أعناق العلماء وورثة الأنبياء « وَإِذْ أخذ الله ميثاقَ الذين أوتوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه »

وقد رأينا أن نذكر لك كُتُبَ الرسول ﷺ إلى الملوك والولاة لتكون نبراسا للمرشدين ومِعْوَاناً للدعاة العاملين

كتابه ﷺ إلى هِرَقْلَ ملكِ الرُّوم

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمدٍ رسولِ الله إلى هرَقْلَ عظيم الروم . سلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى . أما بعدُ فأنى أدعوك بِدِعايَةِ الاسلام أَسْلِمْ تَسْلم ، أسلم يُؤْتِكَ اللهُ أجرك مرتين ، فان تَوَلَّيْتَ فان عليك إثمَ الأريسيِّينَ (١) و « يا أهلَ الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبُدَ إلا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئا ولا يتخذَ بعضُنا بَعْضاً أرباباً من دون الله فان تَوَلَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

(١) جمع أريسى نسبة الى أريس كفصيل وهو الفلاح

ولما قرأ هرقلُ الكتاب فكَّرَ في الأمر ثم جَمَعَ عظماء الروم في قصر له بحِمْص ثم أطَلَّ عليهم فقال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرُّشد وأن يَثْبُتَ ملككم فنبايعوا لهذا النبيِّ فحاصوا (١) حيصة حُمُر الوَحْشِ إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقَتْ . فلما رأى هرَقلُ نُفْرَتَهُم وأيس من الإيمان قال : ردوهم عليَّ وقال : إني قلت مقالتي آنفا (٢) أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه

كتابه ﷺ إلى المقَوْقِس ملك مصر والاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمدٍ عبد الله ورسوله إلى المقوقِس عظيم القِبْطِ سلام على من اتَّبَعَ الهدى : أما بعد فإني أدعوك بدِعايةِ الاسلام (٣) أَسْلِمْ تَسْلَمْ وأسلِمْ يُؤْتِكَ الله أجْرَكَ مرتين فان توليت فان عليك إثمَ أهلِ القبط « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ـ الآية السابقة »

وقد بعث به ﷺ مع حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ فلما دخل على المقوقس قال له : إنه كان قبلكَ رَجُلٌ يزعم أنه الرَّبُّ الأعلى فأخذه الله نكالَ (٤) الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبرْ بغيرك ولا يعتبرْ غيرُك بك فقال : إن لنا دينا لن نَدَعَهُ إلا لِمَا هو خير منه فقال له حاطب : ندعوك إلى دين الاسلام الكافي به الله فقَدْ ما سِواه إن هذا النبيَّ دعا الناس فكان أشدَّهم عليه قريشٌ وأعداهم له اليهود وأقربَهم منه النصارى ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الانجيل وكلُّ نبي أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه وأنت ممن أدركه هذا النبي ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به فقال المقوقس : إني قد نظرت في أمر هذا

(١) نفروا (٢) قريبا (٣) دعوته وهي كلمة الشهادة التي يدعي اليها أهل الملل
(٤) النكال العقاب الذي يزجر الغير

النبي فوجدته لا يأمر بمزهودٍ فيه ولا يَنْهَى عن مرغوب فيه ولم أجِدْهُ بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب ووجدت معه آية النبوة باخراج الخَبْء (١) والاخبار بالنجوى (٢) وسأنظرُ وأخذَ كتاب النبي ﷺ فجعله فى حُقٍّ من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية فكتب الى رسول ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المُقَوْقِسْ عظيم القِبْطِ سلام عليك : أما بعدُ فقد قرأت كتابك وفهمتُ ما ذكرتَ فيه وما تدعو اليه وقد علمتُ أن نبيا بَقِي وكنتُ أَظُنُّ أنه يخرج بالشام وقد أكرمتُ رسولَكَ و بعثت اليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم و بكُسْوة وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام عليك ولم يُسْلِم

كتابه ﷺ إلى كِسْرَى ملكِ الفرس

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمدٍ رسولِ الله إلى كِسْرَى عظيم فارس .سلام على من اتَّبَعَ الهُدَى وآمنَ بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلاالله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أدعوك بِدِعايةِ الله فاني أنا رسول الله إلى الناس كافَّةً لِيُنْذِرَ من كان حيا وَيَحِقَّ القول على الكافرين أَسْلِم تَسْلَم فان أَبَيْتَ فعليك إثم المجوس

فلما قُرِئَ عليه الكتاب مَزَّقه فَبَلَغَ ذلك رسول الله ﷺ فقال : مزق الله ملكه : وقد كان

كتاب النبي ﷺ إلى ملكِ الحَبَشَة

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسولِ الله إلى النجاشِيِّ ملك الحبشة أَسْلِم أنت فانى أَحْمَدُ اليك الله الذى لاإله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم رُوح الله وكَلِمَتُهُ ألقاها الى مَرْيَمَ البتول (٣) الطيبة

(١) المخبوء (٢) السر (٣) العابدة

الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من رُوحِه ونفخه كما خلق آدم بيده وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاةِ على طاعتـه وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فاني رسولُ الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بَلَّغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلامُ على من اتبع الهدى

وقد بعث النبي ﷺ بكتابه هذا مع عَمْرو بن أُمَيَةَ الضَمْرى فقال للنجاشي : يا أصحمة إن عليَّ القولَ وعليك الاستماع إنك كأنك فى الرقة علينا وكأنا فى الثقة بك منك لأنا لم نَظُنَّ بك خيرا قَطُّ إلا نلناه ولم نخَفْك على شئ قط إلا أمِنَّاهُ وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الانجيل بيننا و بينك شاهد لا يرد ، وقاض لا يجور وفى ذلك للموقع الحَزُّ وإصابة المفصل ، وإلا فأنت فى هذا النبي الأمي كاليهود فى عيسى ابن مريم وقد فرَّق النبي ﷺ رُسُله إلى الناس فرجاك لما لم يرجُهُم له وأمَّنَك على ما أخافهم عليه بخير سالفٍ وأجرٍ ينتظر ، فقال النجاشي : أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهلُ الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر ، ثم كتب النجاشي كتابَ جوابِ النبي ﷺ إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة . سلامٌ عليـك يا نبي الله من الله ورحمة الله و بركات الله الذي لا إله إلا هو أما بعـد فقد بلغني كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فو ربِّ السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت قَفْرُوقاً ـ الفلاقة بين النواة والقشر ـ إنه كما ذكرت وقد عرفتُ ما بعثت الينا وقد عرفنا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقا مُصَدَّقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين

كتابه ﷺ إلى المنذر بن ساوى

بعث رسول الله ﷺ العَلَاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى وكتب اليه بسم الله الرحمن الرحيم . أسْلِم أنت فاني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعـد

فان من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلمُ لهذمةُ الله وذمة الرسول من أحب ذلك من المجوس فانه آمن ومن أبى فعليه الجزية فأسلم

وكتب إلى رسول الله ﷺ أما بعدُ يا رسولَ الله فاني قرأت كتابك على أهل البَحْرَيْنِ فمنهم من أحبَّ الاسلامَ وأعجبَه ومنهم من كرهه . و بأرضى مجوسٌ ويهودٌ فأَحْدِثْ إلىّ فى ذلك أمرك

فكتب اليه رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم من محمدٍ رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أما بعد فأنى أذكّرُك الله عز وجل فانه من ينصح إنما يَنْصَح لنفسه وإنه من يُطعْ رسلى و يتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى وإن رسلى قد أثْنَوْا عليك خيرا وإنى قد شفّعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوتُ عن أهل الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تُصْلح فلن نَعْزِلَكَ عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية

كتابه ﷺ إلى ملك عمان

بسم اللهِ الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى جَيْفَر وعَبْدِ ابنى الجُلَنْدَى سلامٌ على من اتَّبعَ الهُدى أما بعدُ فأنى أدعوكما بدِعايَة الاسلام أَسْلِما تَسْلَما فانى رسولُ الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا و يَحِقَّ القول على الكافرين وأنكما إن أقررتما بالاسلام ولّيتكما وان أبيتما أن تُقِرّا بالاسلام فان ملككما زائل عنكما وخيلى تَحُلُّ بساحتكما وتظهرُ نبوّتى على ملككما

وقد بعث بالكتاب مع عمرو بن العاص فخرج به حتى وافى عُمان ، قال عمرو : فلما قدمتها عمدت إلى عبدِ وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا فقلت : إنى رسول رسول الله ﷺ إليك والى أخيك فقال : أخي المقدم علىّ بالسن والملك وأنا أوصلُكَ اليه حتى يقرأ كتابك ثم قال : وما تدعو اليه ؟ قلت : أدعوك إلى الله وحده لاشريك له وتخلعُ ما عُبدَ من دونه وتشهد أن محمدا عبدهُ ورسوله قال : يا عمرو إنك ابن

سيد قومك فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ووددت أنه كان أسلم وصدق به وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للاسلام قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريبا فسألني : أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشي وأخبرته أن النجاشي قد أسلم قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت : أقروه واتبعوه قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت : نعم قال : انظر يا عمرو ما تقول إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب قلت : ما كذبت وما نستحله في ديننا ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي قلت : بلى قال : بأي شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خرجا فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال : لا والله لو سألني درهما واحدا ما أعطيته فبلغ هرقل قوله فقال له الديلق أخوه أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك دينا محدثا ، قال هرقل : رجل رغب في دين فاختاره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع قال : انظر ما تقول يا عمرو قلت : والله صدقتك قال عبد : فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب ، قال : ما أحسن هذا الذي يدعو اليه لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا ، قلت : إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم ويردها على فقيرهم قال : إن هذا لخلق حسن وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ في الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الابل قال : يا عمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه فقلت : نعم فقال : والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا قال : فمكثت ببابه أياما وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري ثم إنه دعاني يوما فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعي (١) فقال دعوه فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس

(١) الضبع وسط العضد أو ما تحت الابط

فنظرت اليه قال : تكلم بحاجتك فدفعت اليه الكتاب مختوما ففض خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته إلا أنى رأيت أخاه أرقّ منه قال : ألا تخبرُنى عن قريش كيف صنعت فقلت : تَبِعوه إما راغبٌ فى الدين وإما مقهورٌ بالسيف قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا فى الاسلام واختاروه على غيره وعرَفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال . فما أعلم أحدا بقى غيرك في هذه الخرجة وأنت إن لم تسلم اليوم و تَتَّبِعْهُ نُوَطِّئْك الخيلَ وتبيد خضراك فأسلم تسلم و يَستعملْك على قومك ولا تدخل عليك الخيلُ والرجالُ قال : دعنى يومى هذا وارْجع إلىّ غدا فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو إنى لأرجو أن يُسْلِم إن لم يَضِنَّ بملكه حتى إذا كان الغد أتيت اليه فأبى أن يأذن لى فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أني لم أصل اليه فأوصلني اليه فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى اليه فاذا أنا أضعف العرب إن ملّكت رجلاً مافى يدى وهو لاتبلغ خيله هنا وان بلغت خَيْلُهُ ألفَتْ قتالا ليس كقتال من لاقى قلت : وأنا خارج غدا فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال ما نحن فيما ظهر عليه ؟ وكل من أرسل اليه قد أجابه فأصبح فأرسل إلىّ فأجاب إلى الاسلام هو وأخوه جميعا وصدّقا النبى ﷺ وخَلّيَا بينى و بين الصدقة و بين الحكم فيما بينهم وكانا لى عونا على من خالفنى

كتابه ﷺ إلى صاحب اليمامة

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هَوْذَةَ بن علىّ . سلام على من اتبع الهدى : واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر [1] فأسلم تسلم واجعل لك ما تحت يديك

وكان الحامل لهذا الكتاب سَلِيطُ بن عمرو العامرى فأكرم هَوْذَةُ وفادته وكتب إلى النبى ﷺ : ما أحسنَ ما تدعو اليه وأجمله والعرب تهاب مكانى

(١) الخف للبعير والحافر للفرس ويطلقان عليهما

فاجعل إليّ بعض الأمر أتبعك . وأجاز سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر فقدم بذلك كله إلى النبي ﷺ فأخبره وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال : لو سألني سبابة من الأرض ما فعلت بادَ و بادَ ما في يديه . وقد مات هَوْذة مرجع رسول الله ﷺ من الفتح

خطبة ق وتفسيرها

علمت أن رسول الله ﷺ كثيرا ما كان يخطب بق وأن بعض النساء ما حفظها إلا من خطبه . لهذا رأينا أن نثبتها في كتابنا مفسرة تفسيرا بينا سهلا خاليا من الاصطلاحات فنقول وبالله توفيقنا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ) (١) بدأ الله كثيرا من سور القرآن بحرف أو أكثر من حروف الهجاء ـ لعلّ ذلك ـ للدلالة على أن القرآن مؤلف من الحروف التي أُلِفَ منها كلام العرب فعجزهم عن محاكاته مع أن مادّته مادّةُ كلامهم دليل أنه من عندالله . أو أن ذلك لفْت لنا إلى تعلم مبادئ القراءة والكتابة لنصل منها إلى تعلم القرآن وسائر العلوم الأخرى وقد أقسم الله بالقرآن الذي تَجُد شأنه وشَرُفَ أمرُه بما احتواه من طرق الاصطلاح للأفراد والجماعات على أن محمدا صادقٌ فيما جاء به عن ربه من البعث وغيره ودليل صدقه هذا القرآن الذي أقسم الله به الذي جاء على يد أمي لم يتعلم الذي أعجز بأسلوبه البلغاء وبهر بأبحاثه العلماء

(بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ : هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ) (٢)

يقول تعالى ذكره : لم يكن الصارفُ للناس عن دعوة الرسول ﷺ اعتقادَهم كذبه وقد جاءهم بالبينات ولكن الصارفَ لهم استعظامُهم أن تجيء الرسالة على يد بشر

(١) المجيد ذو المجد والشرف (٢) الانذار اعلام مع تخويف

يُحَذِّرُهُمْ بأسَ الله وعقابَه إن لم يستجيبوا دعاءه فقالوا : هذا شئ عجيب أن يبعث الله بشرا هلاَّ بعث ملَكا « قل : لو كان فى الارضِ ملائكةٌ يمشون مُطْمَئِنِّين لَنزَّلنا عليهم من السماء ملكا رسولا »

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) (١) كما عجب الكفار أن تجيئهم الرسالة على يد بشر استبعدوا أيضا أن يحييهم الله مرة ثانية إذا ماتوا وصاروا ترابا وقالوا : رجوعنا إلى حياة أخرى رجوع بعيد لا نظن أن يكون « إن هي إلا حياتُنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » فرد الله عليهم بأن موتهم وتحوّلهم الى تراب لايحول دون حياء أخري فانه قد علم ما يدفن فى باطن الأرض منهم وأن ذلك مُدَوَّنٌ عنده فى كتاب محفوظ أوشديد الحفظ لما فيه فخَلْقُهم من ما دَّتهم الأولى أمرهين عليه « يُحْيِيها الذى أنشأها أوّل مرةٍ وهو بكلِّ خلق عليمٌ »

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ) (٢) أى لم يكن السبب فى استبعاد الكفار البعث قيام الأدلة عندهم على عدم امكانه بل حينما أخبروا به ـ وهو الحق لاشك فيه ـ كذبوا به ولم يفكروا فى أنه أهون على الله من البدء وأنه داع لاقامة العدالة فى الارض وأنه ضرورى لمجازة المحسنين الجزاء الأوفى ومعاقبة الظالمين الذين أمهلوا فى الدنيا فهؤلاء المكذبون من أجل استسلامهم للأهواء دون الحق والبرهان فى حال اضطراب فنفوسهم قَلِقة وآراؤهم مُزعزعة شأن من يسير وراء الخيالات ويترك الآيات البينات

(أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) (٣) يقول تعالى ذكره لهؤلاء المنكرين للبعث المكذبين بالحق : أفلم ينظروا إلى الجهة العلوية فوقهم كيف جعلناها طبقات بعضها

(١) الحفيظ المحفوظ أو شديد الحفظ (٢) مريج أى مضطرب يقال مرج الخاتم فى أصبعه اذا تحرك واضطرب (٣) الفروج الفتوق والزوج الصنف والبهيج الذى يروق الناظر

فوق بعض كطبقات البناء وزيناها بالنجوم كما تُزَيَّنُ البيوت بالمُزَيَّات الكهرباء وما للسماء من شقوق وفتوق تعيب بناءها ، والأرض بسطناها فأصبحت صالحة للاقامة عليها والسعي فيها والانتفاع بها ووضعنا فيها جبالا ثوابت تحفظها من الميدان والاضطراب وأنبتنا فيها من كل صنف يبهج الناظر وتروقه خضرته ونضارته كل ذلك خلقنا لنبصركم قدرتنا على ما نشاء ونُذَكِّرَكم عظمتنا وسلطاننا ولكن لا يتبصر ولا يتذكر إلا من رجع إلى الله بالتفكير فى بديع صنعته فيصل منها إلى عظيم قدرته فيؤمن به ويطيعه ويعلم أن البعث أمر يسير عليه بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض « أوليسَ الذي خلق السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلُقَ مثلَهم بلى وهو الخلاق العليم »

(ونَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ماء مباركا فأنبتنا به جَنَّاتٍ وحَبَّ الحَصِيدِ ، والنخلَ باسقاتٍ لها طَلْعٌ نَضِيدٌ ، رزقًا للعباد ، وأحيينا به بلدةً مَيْتًا كذلك الخروجُ) (١)

يقول تعالى ذكره : ونزلنا من السُّحُب العالية ماء كثير الخير ينتفع به كل حي فأنبتنا به بساتين ذات أشجار كثيرة عالية تُظِلُّ من تحتها وتهبه ثمرات طيبة ، وأنبتنا به الزرع الذى يُحْصَد وتُستَخْلَصُ منه حبوبه ليتغذى بها الانسان كالقمح والذرة والشعير والفول وسائر أنواع الحبوب ، وأنبتنا به أيضا النخيل الطوال ذات الثمر المنظم بعضه فوق بعض كل هذا أنبتنا بالماء ليكون قوتا للعباد يتخذون من بعضه غذاء ومن بعضه فاكهة ومتاعا ، وأحيينا بالماء بلدا مأهولا بالسكان قد أجدبت أرضه فلا نبات بها ولا زرع فحولها الماء إلى زروع خضراء وحدائق غنّاء.

وكما أخرجنا بالماء نباتا حيا من أرضٍ ميتةٍ مجدبةٍ كذلك نخرج الموتى أحياء من قبورهم بعد بلاء أجسامهم

كَذَّبَتْ قَبلَهُمْ قومُ نوحٍ وأصحابُ الرَّسِّ وثمودُ وعادٌ وفرعونُ وإخوانُ لوطٍ

(١) الحصيد المحصود والباسقات الطوال والطلع أول ما يبدو من ثمر النخل والنضيد المنضد المنظم

وأصحابُ الْأَيْكَةِ وقومُ تُبَّعٍ كلٌّ كَذَّبَ الرسلَ فحقَّ وَعِيد) (١)

يقول تعالى مسليا لنبيه محمد ﷺ على ما يلاقى من تكذيب قومه : ليس قومك أول من كذب الرسل بل كذب قبلهم كثيرون : فقومُ نوح كذبوا نوحا وأصحاب الرس كذبوا نبيهم ولعله صالح أو شعيب وثمود كذبوا صالحا وعاد كذبوا هودا وفرعون كذب موسى وإخوان لوط كذبوا لوطا وأصحاب الأيكة كذبوا شعيبا وقوم تبع الحميرى كذبوا نبيهم فكل هؤلاء كذبوا الرسل وماهم إلا أئمة مصلحون ودعاة هادون فوجب وعيد الله لهم واستحقوا عذابه وكذلك قومك يحق عليهم العذاب إن أصروا على التكذيب

(أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) (٢)

يقول تعالى ذكره : هل عجزنا عن الخلق الأول للانسان أم قدرنا عليه لقد اعترفتم بقدرتنا عليه ولكنكم تشكون فى قدرتنا على الخلق الجديد خلق الانسان بعد وفاته فلم هذا الشك ؟ وما الخلق الجديد الامثال آخر للخلق الأول بل الثانى أهون علينا منه لأن المحاكاة أسهل من الابتداع

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الانسانَ ونعلمُ ما تُوَسْوِسُ به نفسُه ونحن أقربُ إليه من حبلِ الوريدِ إذ يتلقَّى المُتَلَقِّيَانِ عن اليمين وعن الشِّمال قَعِيدٌ ما يَلْفِظُ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ) (٣) أراد تعالى أن يبين صنعه مع الانسان من بداية أمره إلى نهايته وأن من كان هذا شأنه فلا يعجزه بعثه فقال تعالت قدرته : ولقد أوجدنا الانسان فى صورة حسنة بعد أن لم يكن شيأ ونعلم حديثَ نفسه وخطرات قلبه فضلا عن ظاهر عمله ونحن

(١) الرس البئر التي لم تطو أو كل محفور فى الارض بئرا كان أو قبرا أو غيرهما والايكة الشجر الملتف والتبع الذى يتبع غيره أو يتبعه غيره والتبابعة ملوك اليمن

(٢) اللبس الشك والشبهة (٣) الوسوسة الصوت الخفى ومنه وسواس الحلى ووسوسة النفس حديثها الباطنى والحبل العرق والاوردة الاوعية التى يجرى فيها الدم الى أجزاء الجسم والعتيد الحاضر أو المستعد واذ هنا للتعليل

فى إحاطةِ علمنا به ونفاذِ قدرتنا فيه أقربُ اليه من العروق الداخلة التى يجرى فيها دمه مصدرُ حياته ومن إحاطتنا به أنا جعلنا عليه رقيبين يتلقيان أعماله من خير أو شر و يحفظانها فى سجله لتعرض عليه يوم القيامة وأحد الرقيبين جالس عن اليمين والآخر عن الشمال فلا يفوتهما شئ مما يقول أو يفعل بل كل قول ينطق به عنده مراقب حاضر مستعد لتدوين ما لفظ به

(وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ) يقول تعالى ذكره : وستجىء لامحالة شدة الموت الذاهبة بالعقل كما يذهبُ به النوم أوالشراب ستجىء بالحق من أمر الآخرة وتكشف للانسان عما كان ينكر من البعث وغيره وذلك الحق من أمر الآخرة هو الذى كنت تنفر منه وتهرب أصبح بعد الموت حقيقة عندك لامرية فيها ولا جدال . وأصبحت رهينا بما قدمت من خير أو شر

(ونُفِخَ فى الصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ) وسَيُنْفَخُ لا محالة إذا دنا العالم من أجله فى منفاخ إيذانا بفناء العالم ثم ينفخ فيه أخرى إيذانا باحيائه وقيامه لجزائه وذلك اليوم الذى ينفخ فيه هو يوم الجزاء يوم يتحقق المجرم فيه وعيده و يستوفى عذابه

(وجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وشَهِيدٌ ، لقد كنتَ فى غفلةٍ من هذا فكشفنا عنكَ غطاءَكَ فبصرُكَ اليوم حَدِيدٌ) يقول تعالى ذكره : وحضرت كلُّ نفس إلى ربها فى ذلك اليوم معها سائق يسوقها اليه بَرَّةً كانت أو فاجرة ، وشهيد يشهد عليها بما عملت فى الدنيا من خير أو شر . وإذ ذاك يقال للانسان : لقد كنت فى غفلة مما ترى من حوادث هذا اليوم ووقائعه ، وأهواله وشدائده فرفعنا عنك غطاء الغفلة فبصرك اليوم حادٌّ نافذ يُبْصِر الحقائق كلها واضحة جَلِيَّة

(وقال قَرِينُهُ هذا ما لَدَىَّ عَتِيدٌ أَلْقِيا فى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الذى جعلَ مع الله إلٰهاً آخر فألقياهُ فى العذاب الشديدِ)

يقول تعالى : وقال شيطانه الذى كان يقارنه ويلازمه فى الدنيا ويزين له سُبُل الضلالة ويَصُدُّه عن طرق الهداية ـ هذا الذى عندى قد أعددته وهيأته للعذاب باضلاله واستغوائه ، ودليل أن القرين هو الشيطان : قوله تعالى « ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّضْ له شيطانا فهو له قرين وإنهم لَيَصُدُّونَهُمْ عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » وبعد أن يقول القرين مقالته هذه وهى من نوع الشهادة عليه يقول تعالى للسائق والشهيد : ألقيا فى نار جهنم كل جحود بنعم الله غير شاكر لها معاندٍ للحق مجانبه ، معادٍ لصاحبه ومعاكسه ، مناَّعٍ للخير أن يصلَ منه أو من غيره إلى الناس فينتفعوا به مالا أومعونة أوغيرهما ، معتد على الناس يؤذيهم بلسانه ويسطو عليهم بيده ، ينتقص من حقوقهم ، ويتخطى الحق فى معاملتهم ، شاك فى الله وفى دينه ، الذى جعل مع الله خالق كل شئ إلهاً آخرَ من مخلوقاته لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعاً يَشْركه مع الله في العبادة ويدعوه ويستغيث به في حاجاته كما يدعو ربَّه فارْمِيَا به فى العذاب الشديد عقابا له على شركه وعلى فساد خُلُقِه

(قالَ قَرِينُهُ : رَبَّنَا ما أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِنْ كانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قالَ : لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) (١) لما قال الشيطان فى حق هذا الانسان المجرم : هذا مالديَّ عتيد وشهد عليه بالضلالة في هذا الموقف الرهيب الذى كان يرجو فيه نُصرته ـ قال الانسان : رب هـذا القرين هو الذى أضلنى عن سبيل الحق وَزَيَّنَ لى طريق الفساد ، يريد بذلك إلقاء التَّبعة على شيطانه والاعتذارَ عن ضلاله ليتخلص من العذاب الشديد ، فقال شيطانه القرين : ربنا ما أوقعته في الطغيان وتجاوز الحد فى العصيان ولـكن كان مجانباً لطريق الحق

(١) الباء فى « بالوعيد » زائدة للتأكيد ويحتمل أن تكون قدم بمعنى تقدم فتكون للتعدية . الوعد يكون فى الخير والشر والوعيد يكون فى الشر خاصة . المزيد مصدر بمعنى الزيادة كالمجيد والحميد واما اسم مفعول كالمبيع

بعيدا عنه فدعوته وهو فى ضلاله فَلَبَّى دعوتى وكان بامكانه الايستجيب دُعائى ولو وجدتهُ على طريق الحق ما طمعت فى ضلاله « إن عبادى ليسَ لك عليهم سلطانٌ إلا مَنِ اتَّبعَكَ من الغاوين » « وما كان لى عليكمْ من سلطان إلا أن دعوتُكم فاستجبْتُمْ لى فلا تلاموني ولُومُوا أنفُسَكم » ولما تجادل الانسانُ وشيطانُه فى موقفِ الحسابِ العادل والحُكمْ الفاصل قال لهم الله : لا تختصموا عندى ولا تتناقشوا فما فى ذلك من فائدة وقد قدّمْتُ لكم فى كتبى وعلى ألسنة رُسُلى أنَّ النارَ جزاء من كفر بى وعصانى ولم يتخذ إمامَه قرآنى فلا تطمعوا فى عفوى وقد عاديتمونى ولا فى جنتى وقد عصيتمونى فقولى لكم لا يُبدَّل،وقضائى فيكم لا يُغيَّر لأنه قضاء عادل أساسه « ولكل درجات مما عملوا » وما أنا بظلام لعبيدى فأعاقبَ أحداً منهم بلا جريرة أو آخذَهُ بذنب غيرِه أوأسوِّىَ المسىء منهم بالمحسن والخبيث بالطيب بل جنتى للمتقين وناري للمجرمين « إنَّه من يأت رَبَّه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأته مؤمناً قد عَمِلَ الصالحاتِ فأولئك لهم الدرجاتُ العلا » فيوم القيامة لا يظلم ربك أحدا يوم يقول لجهنم هل امتلأتِ بالجنّة والناس كما سبقت بذلك كلمتى واقتضته حكمتى وعدالتى وتقول جهنم : هل فىّ موضع للزيادة لقد امتلأت جوانبى وتمت ربى كلمتك « لأملأن جهنم من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين »

« وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » كما أُلقىَ فى جهنم المجرمون الذين تقدمت أوصافهم قُرِّبت الجنةُ دارُ الكرامة للذين اتقَوْا ربهم وخافوه وجعلوا بينهم وبين عذابه وقايةً من إيمانهم الصادق وعملهم الصالح فَأُدْنِيَتْ لهم الجنة إدناء مكافأةً لهم على ما قدّموا وقيل لهم : هذا هو الجزاء الذى وُعدتم به فى الدنيا قد رأيتموه بأعينكم وُعد به كل رَجَّاع إلى الله تائبٍ عن عصيانه محافظٍ على قرآنه يخاف الرحمن فى الدنيا ولم يَرَه ولم يحمله علمُهُ بسعةِ رحمتِه على التهاونِ فى طاعته أواقتراف

معصيتِهِ بل مع علمه بهذه الرحمة الواسعة يخافه ويجيئه بقلبٍ يعود إلى النفسِ باللوم والتو بيخ إن أجْرَمَت وبالحث على الخير إن تقاعدت . هؤلاء المتقون الذين ذكر الله أوصافَهم يقال لهم إذا أُدْنِيَتْ منهم الجنـة ووُدُّوا دخولها : ادخلوها آمنين من هموم الدنيا وأحزانها ومكارهها وآلامها ، ذلك اليوم الذى تدخلون فيه هو يوم الخلود فى النعيم فلا حدَّ له ولا نهاية ولا أمد ولا غاية « سلام عليكم طِبْتُمْ فادخلوها خالدين » ولهم فى الجنة ما يريدون من كل ما تشتهيه نفوسهم وَتَلَذُّهُ عيونهم وعند الله زيادة على ما يشاءون مما لا يعرفون يتكرم ربهم بها عليهم « فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذُنٌ سمِعت ولا خطرَ على قلبِ بَشَر » وكفاهُم نعيما وجوهٌ ناضرة إلى ربها ناظرة فاللهم اجعلنا من عبادك المتقين الذين يدخلون الجنة خالدين

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قبلَهم من قَرْنٍ هم أَشَدُّ منهم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فى البلاد هل من مَحِيصٍ إِنَّ فى ذٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كان له قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وهُوَ شَهِيد) (١)

بعد أن بَيَّنَ الله ما أعَدَّهُ للكفار المعاندين من العذاب الأليم يوم الوعيد بين أنهم ليسوا بِمَنْجَاةٍ من العقاب فى الحياة الدنيا كما عاقبَ الأمم السابقة التى كذبت رسلها فقال جل شأنه : وكثيرا من الأمم السالفة والقرون الخالية قبلكم أهلكناهم وكانوا أشدَّ منكم قوة وأعظم سَطوا فسَاروا فى البلاد وفتحوها وكانت لهم الكلمة فيها فهل أغنى عنهم بطشُهم وتنقيبُهم لما نَزَلَ بأس الله بهم ؟ وهل وجدوا لأنفسهم مَفَرًّا من عذابه ؟ لم يجدوا مهربا ولا مَحِيصاً وكذلك نَفْعَلُ بقومك إن تمادَوْا فى غَيِّهم ولم يقلعوا عن تكذيبهم . ثم قال جلت حكمتُه : إن فيما ذكرنا من حال الناس يوم القيامة المتقين منهم والمجرمين ومن بيان سُنَّتِنَا فى إهلاك المكذبين لتذكيرا وقائم الظالمين وعظةً لمن كان له قلب يتذكَّرُ وعَقْلٌ يَتَبَصَّرُ أو ألقى بسمعه لهذه الأخبارِ فأصغى إليها الاصغاءَ كلَّه وقد أحضر نفسه وتَفَهَّمَ ما سمِعه فى غير سهو ولا غفلة

(١) القرن القوم يجمعهم زمن واحد . البطش الصولة والسطوة والأخذ بالشدة . والتنقيب فى الأرض السير فيها ونقب فى الأرض — بفتح القاف وكسرها — سار فيها أيضا ونقب الجدار خرقه ونقب البعير حفى أو رقت أخفافه . المحيص الملجأ . القاء السمع معناه الاصغاء

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) (١) يعنى : ولقدخلقنا السموات السبع وما انتظمته من كواكب والأرض وما احتوته من معادن وما بينهما من حيوان ونبات وأنهار وبحار وسُحُب ورياح وعوالم أخرى لايحصيها العَدُّ ـ خلقنا كل ذلك فى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا وما مسنا من إعياء ولاضعف فهل نعجز بعد ذلك عن خلق الناس تارةً أخرى « أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يَعْىَ بخلقهن بقادر على أن أن يُحْيِيَ الموتى بلى إنه على كل شئ قدير »

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ) (٢) واذ تبيّن يامحمد أن ماقاله الكفار « هذا شئ عجيب أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رَجْعٌ بعيد » قولٌ باطل لم يستند إلى دليل وانما دفعهم إليه العناد واللجاج ، فاصبر على ما يقولون واشتغلْ بتسبيح الله وتنزيهه شاكرا له ماحباك من نِعَمِه . ومن تسبيحه وتقديسه أن تؤدى له قبل طلوع الشمس صلاة الفجر وقبل الغروب صلاتى الظهر والعصر وفى أول الليل صلاتى المغرب والعشاء وسبحه أيضا فى أعقاب الصَّلَوات وفى أثناء السجدات

(وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ) يقول الله : واستمع أخبار القيامة يوم يُنَادِى المنادِى المَوْتَى من قبورهم من مكان قريب منهم بحيث يصلهم نداؤه فيسمعون صوتا عاليا بالبعث من مراقدهم ذلك اليوم هو يوم الخروج من القبور والاحياء والنُّشور

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) يقول الله : إنا نحن نحيي الموتى ونميت الأحياء وإلينا مصيرهم يومَ القيامةِ يومَ تَنفَتِحُ الأرضُ عنهم فيخرجون من أجدائهم سِرَاعاً إلى موقفِ

(١) اللغوب التعب والاعياء (٢) دبر كل شيء آخره وقرئ ادبار مصدرا والتسبيح التنزيه ويعبر به عن الصلاة لما فيها من التسبيح

الحساب ذلك الجمع للناس فى هذا الموقف جَمْعٌ علينا سَهْلٌ

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) يقول الله : نحن أعلم بما يقول هؤلاء الكفرةُ من تكذيبهم بآيات الله واستعظامِهم أن تجيء الرسالةُ على يد بشر منهم واستبعادِهم البعث وما أنت بمسلَّطٍ عليهم فتعاقبهم على افترائهم وكذبهم إنما أنت مبشر ومنذر إنما أنت مرشد ومُذَكر « فانما عليك البلاغُ وعلينا الحِسابُ » فَعِظْ بالقرآن غذاءِ الأرواح وطِبِّ القلوب من يخافُ وعيدَ الله الذى أوْعَدَ به من عصاه وما وعيدُه إلا الذِّلَّةُ فى الدنيا والعذابُ فى الأخرى أما من لا يخشى ربَّه فلا تنفعُه الذكرى « سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى » وكأنى بالوعاظ المرشدين وقد سمعوا أمر الله لنا أن نَعِظَ بالقرآن ، قد اتخذوا كتاب الله سَمِيراً وجعلوه أساسَ وعْظِهِمْ ومادَّة دروسِهم ومَنْبَعَ خُطَبِهم والله يقولُ الحقَّ وهو يهدى السبيلَ

صناعة خطب الجمعة وإلقاؤها

بَيَّنَّا لك أن خيرَ الخطب ما كان مصدرُه نفسَ الخطيب وشعورَه وإحساسَه لا نفسَ غيرِه ممن مضت بهم القرون ، وكانوا فى عالَمٍ غيرِ عالَمِنَا ، ولهم أحوالٌ تخالفُ حالَنا ، فمن أراد العظةَ البالغة ، والقولَة النافذة ، فَلْيَرْمِ ببصرِه إلى المنكراتِ الشائعة ، والحوادث الحاضرة ، خصوصاً ما كان منها قريبَ العهد ، لا تزال ذكراه قائمةً فى صدورِ الناس ، وحديثه دائراً على ألسنتهم ، أو ذائعاً فى صحفهم ، وأثره مشاهداً بينهم ، ثم يتخيَّرُ من هذه الحوادث ما يجعله مِحْوَرَ خطابتِه ومدارَ عظتِه ثم يَنْظُرُ ما ورد من الآيات والأحاديث الصحيحةِ فى الموضوعِ الذى تخيَّرَه ويُجيد فهمَها ويفكِّرُ فى الأضرارِ الماليةِ والصحيةِ والخلقيةِ والاجتماعيةِ التى قد تنشأ عن هذه الجريمةِ التى جعلها موضع عِظَتِه ويُحْصِى هذه الاضرارَ فى نفسِه أو بقلمِه ، ثم يبدأ فى كتابةِ الخطبةِ - إن أراد كتابتَها - مضمِّنَها آثارَ تلك الجريمة وما ورد

عن الشارع فيها ، صائغاً ذلك فى قالب خطابى جذاب أخاذ يناسب أفهامَ السامعين ولغةَ الحاضرين .

هذا إذا أراد التنفيرَ من رذيلة أو الاقلاعَ عن جريمة ذاع بين الناس أمرُها أو طَمَحَ عليهم شرُّها ، فان أراد الترغيبَ فى فضيلةٍ أو الحثَّ على عملٍ خيرى أو مشروع حيوى فَلْيُفَكِّرْ فى مزاياه تفكيراً واسعاً مراعيا الصالحَ العامَّ دون المآرب الخاصة ، ولْيَسْتَحْضِرْ ما يناسبُه من الآياتِ والأحاديث ـ وفى الكتاب كلُّ شئ وفى السُّنَّةِ البيانُ والتفصيل ـ ثم لِيَنْحُ فى الكتابة النحوَ الذى بينا ، وإياه والسجعَ المتكلَّف ، والمُحَسِّناتِ المرذولة التى كثيرا ما تخفى الأغراضَ وتُعَمِّى المعانى وتأخذ بصاحبها عن سدادِ القول وقصدِه

وليكن كلامُه جامعاً مُحْكماً ، صادراً عن قلبه ، مملوءاً بالعبر والعظات ، وينبغى أن يكون تفكيرُه فى جوّ هادئ بحيث لا يحولُ بينه وبين حديثِ النفس وحكمةِ العقل ومراقبة الرب أىُّ حائل ، كما يُعْنَى بتصفيةِ نفسه وتهذيبِها قبل الشروع في العمل ، فَيُقَدِّمُ بين يديه قراءةَ ما تيسر من القرآن الذى هو آياتٌ بيناتٌ فى صدور الذين أوتوا العلم ، مع خشوعٍ وخضوعٍ وتَدَبُّرٍ للآيات ويُقَلِّلُ من الطعام والشراب حتى لاتذهبُ بِطْنَتُه بِفِطْنَتِه ، فيريد القولَ فيستعصِى عليه ، أو يُصْدِرُ غثّاً ، أو يكون مَعِينُ كلامه اللسانَ فلا يتجاوزُ الآذان

ثم إذا خَطَّ الخطبةَ فان شاء حفظها وألقاها ، وإن شاء ارتجل ما تضمنته وهو أحبُّ الأمرين إلىّ حتى لا يكونَ مقيدا بعبارة ، فاذا ما عنَّ له حادث جديد أثناء الخطابةِ كان له من الحرية ما يُمَكِّنُهُ من الخوضِ فى الحَدَثِ الحادث ، وكثيرٌ من الحفاظ إذا نَسُوا جملةً وقفوا فى الخطبة فلا يَنْبِسُون بكلمة ، فيفقدون الهيبةَ فى نفوس العامة ، وما ألزمها للواعظ الناصح ، فكان من المصلحة ألا يَتَقَيَّدَ بعبارةٍ بل يَتَخَيَّرُ من العبارات ما يُؤَدِّى المعانىَ التى وصل إليها ببحثه

وإن شاء الخطيبُ ألا يُقَيِّدَ بالكتابة ما جادت به فكرتُه بل يَرْسُمُه فى مُخَيِّلَتِه ويُسَطِّرُه فى ذاكرته ، ثم إذا حانت الخطبة استملى الذاكرةَ فأمْلَتْهُ ولم تخنْه إن شاء ذلك كان خيراً وأولى ، لأنه لا يحتاج إلى قلم يخط به ، ولا قِرطاس يُقَيِّدُ فيه ، بل هو غَنِيٌّ بنفسِه وذاكرته عن الآلات والأدوات ، وخيرُ الغِنَى غنى النفس . ذلك ما يرعاه فى صناعة الخطابة

أما الالقاء فصوتٌ مُسْمِع ، وعبارة بينة ، ومقاطعُ واضحة ، وتمثيلٌ للحوادث ، وسيرٌ مع الطبيعة ، دون تكلف ممقوت ، وصوتٍ مكذوب ، أو تمطيط فى الفاصلة أو غَنَّاتٍ غير مُتَقَبَّلَةٍ

وإياه أن يأخذَه الغرورُ بعلوِّ المكانة وارتفاعِ الدرجة ، أو يغلب عليه الرياء ، والتَّطَلُّعُ للثناء ، فان ذلك مرضُ المواعظ القاضى على سلطانها ، المانعُ من تأثيرها ، بل عليه أن يراقِبَ الله وحده ويَذْكُرَ أنه عليم بخطرات نفسِه ، وجولاتِ ذهنه . ثم محاسبُهُ على ما تُخْفِى الصدور . وإذا علم أن ثناء الناس لا قيمة له عند الله ـ مالم يكن بحق ـ وأنه لا يَحُولُ دون ضرٍّ أراده الله بمن يقولُ ولا يفعل ، أو ينطقُ بغير ما يُضْمِرُ ، ويظهر غير ما يبطن ـ إذا علم ذلك سهل عليه أن يدعَ الناس وثناءهم جانبا ويُوَلِّيَ وجهَه نحو الذى فطر السموات والأرض وبيده ملكوتُ كل شئ وهو يُجِيرُ ولا يجار عليه ، فان ذلكم الجديرُ بالرعاية والأولى بالرقابة ، والحقيقُ بالرغبة فى ثوابه ، والرهبةِ من عقابه ، لا من لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، وربما كان ثناؤه بلسانه وبين جنبيه عدوٌّ لدود ، وحسودٌ حقود ، فالواعظ العاقلُ مَنْ مقالُ حاله ساعة يتصدى للارشاد (لا نريدُ منكم جزاء ولا شُكوراً * إنا نخافُ من ربِّنا يوماً عبوساً قمطريرا) [1] (إنَّا إلى ربِّنا راغبون)

وحَذَارِ للواعظ أن يلتزمَ خطبة واحدة فى خطبة الجمعة الثانية فان ذلك سبيلٌ موبوء ، ودَأْبٌ مرذول ، وكيف تستحل ساعةً من وقت الناس كافة لا تفيدهم فيها

(١) شديدا

فائدة ، ولا تعودُ عليهم منها عائدة ، بل يسمعون عبارات قدحفِظوها ومَلَّوها حتى تركوا التفكيرَ فيها ، فأصبحت فى نظرهم لغواً من القول (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ) وهل تظن فرقا بين من يسرقُ أموالَ الناس ومن يَسْرِقُ أوقاتَهم ؟ اللهم إنه لا فرق إلا أن الأوَّلَ يجنى على المالِ والثانى يجنى على رأسِ المال ، فان الوقتَ مصدرُ كل خيرٍ فى الحياة الراهنة والحياةِ القابلةِ ، وإن الدنيا مزرعةُ الآخرة ، لما ذا نُعْنَى بالخطبة الأولى فنضعُ لها كلَّ جمعةٍ نَصًّا جديداً ولا نُعْنَى بالثانية فنلتزم نصا مَجَّتْه الأسماع ونبذته الطباع ، إنه لا داعي لذلك إلا الجهل والكسل ، فالجهل بصناعة الخطابة أقعدنا عن صنعِ الخطبتين ، وان أجهدنا الذهن ، واعْتَصَرْنا الفكرَ فَقُصَارى الجَهْدِ ، وغايةُ الوُسع خطبةٌ واحدةٌ نؤلفها فى أسبوع ، والكسلُ قعد بالذين يلتمسون دواوين الخطباء عن أن يَحْفَظُوا خطبتين فاكْتَفَوْا بواحدةٍ لكل جمعة واتخذوا الثانية نصا لِزَاما مدى حياتهم ، بل ربما كان هذا إرْثَهم عن آبائهم وأجدادهم بل أسلافِهم الأولين ، وربما ورَّثوا أبناءهم تُرَاث أجدادهم (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (١) وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)

فَلْيُقْلِع الخُطَبَاء عن هذه العادة الممقوتة ويَسْلُكوا فى الثانيةِ ما سلكوه فى الأولى حتى يكونُ آخرَ ما يَقْرَعُ الأسماعَ من وعظِهم كَلِمٌ حديث و بِدْعٌ طَرِيف مما عملته أيديهم فَيَحْمَدُ لهم الناسُ ما صنعوا و يشكرون لهم ما قدموا والله المُوَفِّق للسداد

نماذج فى صناعة الخطب

عَرَّفْناكَ أَن مادةَ الخطبة (١) موضوعٌ متخير وتفكيرٌ فيه يوضح المنافع أو يبين المضار (٢) وآيات بينة وأحاديث صادقةٌ تلائم الموضوع . أما تخيرُ الموضوع والتفكيرفيه ، فأساسه حكمةُ العقل ، وسلامةُ الذوق ، وأما الآيات فدونك كتابَ

(١) طريقة